

القدس العثمانية

في المذكرات الجوهرية

الكتاب الأول من مذكرات الموسيقي

واصف جوهرية 1904 – 1917*

تحرير وتقديم: سليم تماري وعصام نصار

القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، 2003.

270 صفحة. (مع أسطوانة مدمجة)

مذكرات واصف جوهرية

تضيء ليل القدس

أنبأني عزفه وغناؤه بطول نفسه وحيويته وأحاسيسه الداخلية أنه ربما سيكون كذلك في روايته عن نفسه والموسيقى والغناء والمكان والإنسان، تلك الرواية التي أعلمتني عن أحد أعلام الموسيقيين والمؤرخين في هذا المجال المحدود في فلسطين. لم أكن قد سمعت بواصف جوهرية من قبل، حتى أتاني كتاب مؤسسة الدراسات المقدسية، مذكرات واصف الجزء الأول، فكان للكلمة سمو على اللحن لأنها المنبئة عنه، على الأقل بالنسبة لي وأمثالي ممن لم يتعرفوا عليه فنانياً.



لقارئ المذكرات أن يقرأ ويشاهد بعين واصف جوهرية، عينه الموسيقية للزمان والمكان والناس، لقد أحسن مصمم الغلاف بالتعاون مع المحررين في تقديم واصف يحمل عوده الذي أصبح خلفية للقدس، بل نسج علاقة ما بينهما وصلًا وانفصالاً، فظهرت القدس كألحان أصيلة، في حين تقرأ في عينيه مشاهدة ماضي القدس في مقتبل القرن العشرين.

إننا أمام عين موسيقي، وعين مراهق، أرخ لفترة 1904 – 1917 أي حتى نهاية الدولة العثمانية، وهي الفترة التي كان فيها واصف طفلاً وفتى، مقدسياً، ينتمي لعائلة مسيحية معروفة، عين إن لم تكن صاحبة قرار في الأحداث، فقد كانت تعيش في مركزها.

قد يكون واصف كتب هذا الجزء متأخراً بعض الشيء عن صباه، لكن روح

* المصدر: "الأيام" (رام الله)، 2003/9/11. صدرت الطبعة الثانية من الكتاب حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت.

الكتاب - المذكرات الجزء الأول هي روح الطفولة والمراهقة، وهي الروح المتأججة بالعواطف، والتقاط الجديد ومحبة الاستطلاع والانطلاق في الحياة.

لكن من سيكتب عن الكتاب، خصوصاً إذا قرأه بعناية وتعمق، سيجد نفسه محتاراً عما يمكن الحديث عنه، ثمة خصوبة ثقافية - تاريخية تغري الكاتب، كما أغرت صاحب المذكرات نفسه.

فواصف جوهرية، ليس بسياسي مشهور مثلاً حتى يهتم الناس بمذكراته، إذاً من أين نبعت الأهمية؟

القارئ للمذكرات يستطيع الإجابة، فهو حين يقرأ وصف واصف للحياة اليومية العادية من وجهة نظر مواطن، وما فيها من مظاهر وأحداث تكون الحياة السياسية خلفية خفيفة الظل لها، فإننا أمام (وهو) وثيقة صادقة للمجتمع وكيف كانت التأثيرات الفكرية السياسية والثقافية عليه بالإضافة لمدى عمق تلك التأثيرات، وهذا النوع من المذكرات قليل، حيث جرت العادة في كتابة المذكرات أن تكون لشخصيات وفق مقاييس معينة كالشهرة، والمكانة والتأثير (في العرف التقليدي للسيرة والمذكرات).

إن أهمية المذكرات ثقافياً وأدبياً هي أولاً في عنصر الصدق وعدم الادعاء، فرغم الثغرات في الصياغة والترتيب واللغة، إلا إن الصدق كان عنصر النجاح الحاسم، فهو يعرض لحياة القدس في صدق الوصف للحياة، وما فيها من جديد حيث حداثة العصر تدخل حياة الناس، وفي صدق تصوير الحياة الاجتماعية، في تصوير النفوس والرغبات والأحاسيس والمشاعر المادية والمعنوية، فلم يظهر الناس ونفسه قديسين ولا شياطين، بل أظهرهم كما هم بشر.

وأهمية الصدق أيضاً تكمن في أنه أرانا كيف أن الأحداث الكبيرة التي مرت على القدس حتى في ظل الحرب الأولى، وسقوط القدس في أيدي الإنكليز، لم تكن اجتماعياً ونفسياً بهذا الخطر والأهمية والانسجام، بل ظلت حياة الناس وحياة النخبة تسير كأن شيئاً لا يحدث، وأن ظروف الحرب لا تؤثر على الشعب والنخبة بذات المقدار، والذي يدفع الثمن هو الناس العاديون.

كما يكمن الصدق في تصوير ردود الفعل الشعبية (أهل القدس كمجتمع مديني) والنخبوية الحاكمة والقادرة اقتصادياً (من يملكون السلطة والمال) تجاه الحرب بشكل خاص، وتجاه السلطة السياسية والحكم بشكل عام، وكيف أن هناك تناقضاً ما، ما بين الولاء (الاتصال) والكراهية (الانفصال) تمثل ذلك حتى في فكر واصف جوهرية نفسه.

فهو في الوقت الذي يزين مجموعة صورته بصورة السلطان العثماني، ويمدح أهل

الحكم هنا وهناك، فإنه لا يجد تناقضاً حين يذكر في نهاية الجزء الأول مع خروج الأتراك العثمانيين من القدس "دار الظالمين خراب".

وتأويل ذلك أنه في ظل فترات الحكم المشابهة للفترة التي تحدث فيها واصف، فإن المواطن العربي (والمسلم) باعتبارها دولة الخلافة يميل إليها شعورياً وفكرياً، لكنه لا يميل إليها سياسياً حين يرى الظلم الاجتماعي، وكل عيوب الدولة العثمانية في تعاملها مع الولايات والمجتمعات خارج مركز الدولة (تركيا)، وهو صادق في ذلك لأن الناس هنا كانوا في موقف شعوري متناقض إزاء سقوط دولة العثمانيين كدولة خلافة، وظل هذا الجدل حتى الآن في الولايات العربية التي حكمها الأتراك، ويستطيع الباحث في التاريخ الشفوي أن يرجع لمجايلي واصف جوهرية، ويستشف منهم كيف حزنوا لسقوط السلطنة، وكيف فرحوا للخلاص من الحكام الظلمة.

والمذكرات فرصة لإعادة النظر بالدولة الإسلامية مفتوحة الحدود مهابة الجانب، فحين يتحدث الجوهرية عن المدن والبلاد تحس بقربها، فهذه دمشق الشام مثل القدس وهكذا. ويأتي في هذا السياق العيش المشترك التعددي الحقيقي لا التعددي المفتعل، يشهد واصف على ذلك، الأديان الثلاثة، الأجانب، التسامح والمحبة، فهو قريب جداً من عائلة الحسيني المسلمة، فهذا شهر رمضان وأعياد المسيحيين واليهود وبهجة أهالي القدس والطقوس والمواسم جنباً إلى جنب أيضاً مع حادثة المسارح والمقاهي التي كانت مسموحة.

القدس الحديثة

المدينة العربية بمحلاتها ووسائل مواصلاتها القديمة، بلباسها وطعامها، والحكواتي فيها، وصندوق العجب، معمارها، حماماتها، البلدة القديمة بكل ما فيها، .. تبدأ بالتطور في جميع المجالات، انتشار المباني خارج السور، دخول الكهرباء، دخول الأتومبيل (دون حسان!) الطائفة،.. وهو يشهد كيف كانت ردود فعل الأهالي تجاه هذه المخترعات المدهشة، وفي هذا حس أدبي، تأريخي ذكي، يورده بلغة عادية معبرة، بحس إنساني حيوي للكوميديا فيه حظ، وهو في رواية (الطفل - الفتى) أفضل من يعبر عن ردود الفعل الآنية التي يظل الأطفال يتذكرونها.

يدهشك واصف بوصفه الدقيق مثلاً لنمو الأحياء خارج السور، يحفظها حياً حياً وبيتاً بيتاً.

إن التحدث عن القدس (المدينة) يقود كاتباً مثل واصف عاش حياة المدينة بنهارها وليلها (كملحن وفنان ومغن، وذي صلة بالأعيان) إلى الحديث بجرأة (الطفل - الفتى) عن حياة المدينة في الليل، ويمكن لباحث في التاريخ مثلاً أن يأخذ هذا الجانب للتحدث فيه بشيء من التفصيل لما في ذلك من دلالات مختلفة.

ارتبط بحديث الليل الفني، وأصحاب الذوق واللهم، فهؤلاء الأعيان من عرب وترك وأجانب، وهذه الخليلات المعشوقات العاشقات، وأدوارهن اجتماعياً وجمالياً وسياسياً، وإن أبرزهن واصف كخليلات، وذكر أسماءهن وأسماء الأعيان العشاق. كان للجماليات دور اجتماعي في الهلال الأحمر لتشجيع التبرعات، كما كان لهن دور تنويري لم يفصله واصف، من ذلك علمهن في تفتير الزعتر على سبيل المثال.

وقد يستشف القارئ بعض الدلالات في علاقة النساء بالرجال (النخبة) وهي دلالات خفية لها بعد سياسي، لم يحملها واصف أكثر مما يستحق، فلم يتحدث عن أثر النساء اليهوديات مثلاً على رجال النخبة، بل تصرف بذكاء حين جعل لكل الحسان نصيباً في ذلك، كان مبتغى الرجال هو الحب والمتعة كما تتميز به تلك النساء وطوائفهن من تحرر نسبي غير موجود لدى النساء المقدسيات المحافظات، وقد استغرق واصف جوهرياً في التحدث كثيراً عن هذا الجانب الأثير لديه، لمشاركته فيه، ولدوره الفني الذي له علاقة بالليل، مما ينبئ أن المدينة المقدسة كان لها سطح محافظ نهاري، وسطح متحرر ليلي، فيه الابتسام والمجون والموسيقى.. فقد يخلصها ذلك من صورتها النمطية كمدينة دينية، فالمدينة محطة مهمة لأهل الطرب خصوصاً في مصر، مما يقود إلى الحديث عن الوحدة الشعورية لعرب مصر والشام مثلاً، وقد استغرق واصف في الحديث عن الموسيقى والغناء والكلمات، والمغنين والآلات الموسيقية، فهو مؤرخ موسيقى عاشق لها.

إنه يذكر تفصيلات دقيقة عن الحياة والموسيقى والناس، أشبه بالروائي والقصص من أي شيء آخر.

تتناقض الحرب مع المرح والسرور في جو الليل، الفقراء والأغنياء، المحافظة والتحرر، القديم والحديث، إنها مدينة انتقالية في السلوك والتكنولوجيا، وتكنولوجيا الاتصال والموسيقى كذلك، وتكنولوجيا الإنتاج الموسيقي الذي مركزه مصر.

وخلال حديثه عن المكان والقرى حول القدس لعلاقة المدني (الإقطاعي) بالفلاح لم يكن واصف إلا ذا عين موسيقية، يرصد الأغاني القروية والآلات كالربابة وغيرها، في قرى غرب القدس سويس، كسلا، بيت سوسين...

حتى وهو يعمل في أريحا كجندي، ومتصرف تجاري لمصلحة أحد الأعيان، فإنه رغم وصف الكثير من الأحداث والأشياء التي هي غريبة وجديدة (كميناء على البحر الميت لنقل القمح، فنادق صغيرة، بحارة يافا، ...) فإنه ظل وفياً ومحباً لكل ما له علاقة بالموسيقى، لأنه أيضاً كان يعزف للجنود والضباط الأتراك، وهو يتذكر قدوم جمال باشا إلى المدينة العام 1916 وأثر ذلك اجتماعياً.

يعجبنا في واصف شخصيته الفطرية في الوصف والتوثيق، ساعد على ذلك عمله

كموظف له علاقة بالتوثيق والتسجيل، لقد خصص عدة قوائم كملحقات عن العلماء والأدباء من الأديان الثلاثة، عن المحامين، الصحف والمجلات، الألعاب، العائلات اليهودية، الطعام.

رواية في المذكرات

ثمة تحليل أدبي يكمن وراء تصفح أو قراءة واعية للمذكرات، لا أستطيع الفكاه منه، لغة الكاتب لغة كتابة ولغة مذكرات، لكنها استطاعت إدخالنا في جو المكان والزمان كما الرواية و(الفيلم)، وهي لغة عادية غير مفتعلة، مما يقربها من لغة الأدب القصصي والروائي الحديث. إلا إن واصف يملك حساً أدبياً عالياً لم يشأ استخدام كل الجماليات اللغوية في نص أراد مذكرات لا قصائد شعرية، نقف عند بعض العبارات والكلمات مثل (خلقت كما تشتهي) في وصف حسناء، فتعرف أن ملكة الشعر موجودة لديه، لكنه أدرك بفطرته وثقافته ضرورة الفصل بين لغة الشعر ولغة التوثيق والتأريخ.

التسلسل الزمني واضح في المذكرات لمناسبة هذا الشكل المذكراتي، ويمكن لروائي أو كاتب سيناريو ماهر (مثل أسامة أنور عكاشة) أن يلتقط داخل المذكرات حياة عظيمة، أرضاً خصبة لخلق مادة ميلودرامية عن أجواء القدس، أو أجواء إحدى الحواضر العربية، لقد خدمت حاسة الطفل في تذكر التفاصيل (قد يتوفر ذلك في الجزأين الثاني والثالث اللذين لم يصدر بعد، وما زالاً مخطوطين) في خدمة العمل الأدبي الذي يحتاج إلى هذه التفاصيل الصغيرة، أكثر من مجرد ذكر الأحداث الكبيرة التي هي موثقة أصلاً. لم تمنع المذكرات بهذا الشكل أيضاً من وجود قصص قصيرة بحد ذاتها داخل النص الكبير (270 صفحة من القطع الكبير) مثل قصة الوالدة والأخرس، وغيرها الكثير، التي هي قصص قصيرة جداً تنسجم مع القصص القصيرة جداً في هذا العصر. ول كبار السن، وممن استمعوا لهم منا، أن يتذكروا سنة الجراد 1914 حين حجب الجراد عين الشمس، وكيف عبر عن ذلك واصف اجتماعياً من منظور المدينة.

وقد نربط سريعاً تطور كل ذلك بتطور تاريخ التصوير الفوتوغرافي، حيث قدم لنا واصف الكثير من الصور المتحدثة عن المكان والزمان والشخصيات.

قد يكون الفنان في وسط كل الأحداث، والحياة، وهو الصوت المعبر عنها، لكن رغم ذلك نحس أن هذا المبدع واصف وغيره يظلون رغم عيشهم الداخلي في المجتمع محتفظين بعين المتطلع من الهامش يصف ويراقب ويحزن ويشتاق ويفرح.

وكما وصف واصف جوهرية حياة القدس، حياته، من منظوره الخاص كموسيقي ومحِب.. فإن لنا، وغيرنا من المتخصصين في التاريخ والأدب أكثر منا أن يقرأوا الكتاب المذكرات ليحدثونا من خلال منظورهم الشخصي والعلمي عن جوانب أخرى في الكتاب والقدس..

تحسين يقين صحافي فلسطيني

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>